

وحدة الوجود...

كثير من الماسح الفكرية، والمذاهب العقلية، والطرائق الرياضية، ترى إلى وحدة الوجود، وكلها تتباين في طرق التفكير، ونهج الفلسفة، ولكنها متفقة بجمعة على حقيقة واحدة: تلك الحقيقة هي أنه بين غير المتناهي والمتناهي علاقة يتأدى بها إلى اتحاد الطرفين

وكما اتفقت تلك الفرق في اختلافها على هذه الحقيقة. اتفقت في وجهة النظر التي سارت بهم على ضوء المقدمات حتى انتهت بهم إلى هذه النتيجة، فهم متحدون في المصدر والمورد مختلفون في الطريق الذي ينهما

فالكثرة الغالبة من فلاسفة الصوفيين في الإسلام يعتبرون أن الحق موجود قبل كل موجود، وهذا صحيح، ثم يقولون وقد وجدت الكائنات بعد أن لم تكن، ولما كان غير معقول أن يوجد شيء من لا شيء، لزم بالبدهة أن يكون الوجود هو عين الموجود، وأن ليس وجود الوجود الحق بصور أحوال ما هي عليه الكائنات، فانه ظاهر في المظاهر، والمظاهر هو على ما هي عليه وهذا بعينه هو ما انتهى إليه هيراكليت، الفيلسوف اليوناني اذ استنتج أن الكائن الالهي يتخلل صور الأشياء المتناهية، والمتناهي نفسه لا يوجد الا في الله

وتكاد تكون عين ما وصل إليه تولاند، أول من أطلق اسم الاتحاد في أوروبا. حيث زعم أن العالم ليس منفصلاً عن الله إلا في وهما فقط

وقديما تسأل الناس من أين جاءت الروح، ومم نشأ الجسم؟ ثم قالوا إذا كان واجب الوجود غير متناه وجب الوجود شيء خارجاً عنه، لأن غير المتناهي يستغرق كل موجود

وإذا تقرر أن الأرض وما تبع ليست إلا مجموعة صغيرة حقيرة من مجاميع لا عدد لها تسير بقانون في فضاء لا يتناهي إذا تقرر هذا جاء العقل فقال إن شئتين غير متناهيين لا يوجدان معاً، فإذا كانت الكائنات غير متناهية، والحال غير متناه، وجب أن أحدهما هو الآخر

وعلى ضوء هذا الفكر منى العقل طفلاً يجبر إلى الاتحاد، فلما أن شب واستطاع أن يمشي على ساق الاعتقاد بافتراض الشك جرى إلى المذهب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً

وهكذا أخذ الرأي العام يتحول حتى استطاع المستر فرانكلين روزفلت أن يستميل الأمة إلى صفه، حينما أعلن في شجاعة وصراحة أن من مبادئه إلغاء التحريم. ومنذ انتخب للرئاسة في أوائل هذا العام وهو يسير بالبلاذ نحو الإلغاء حتى تم له في أوائل هذا الشهر ما أراد، بأن حصل على موافقة ست وثلاثين ولاية على إلغاء التعديل الثامن عشر.



والآن وقد انتهى التحريم، فما عسى أن يكون المستقبل؟ ان الذين نادوا بإلغاء التحريم، لم يفعلوا ذلك لرغبتهم في شرب الخمر وحدهم لها: بل ان أكثرهم قد فعل ذلك أملاً في أن الإباحة تقضي على تلك الشرور التي ولدها التحريم. فتنهى بانتهائه. ولكن من الصعب أن يتنبأ المرء بشيء. فان بضع عشرة سنة تقضيها عصابات الاجرام في نشر الاجرام والفساد في جميع أنحاء البلاد، لا يتصور أن تنتهي آثارها في عشية أو ضحاها. وما لاشك فيه أن البلاد اليوم في حال انتقال شديد الخطورة، فقد تفتق بسرعة من تأثير هذه السنين العصية، وقد تبقى تحت ظلها القائم زمناً طويلاً، خصوصاً اذا ذكرنا أن عدد الذين يشربون الخمر قد ازداد ولم ينقص أثناء التحريم. وأن الإباحة الجديدة لا بد أن تؤدي زمناً ما إلى الاسراف في أمر محبوب كان ممنوعاً فأصبح مباحاً. ومن غير شك أن الحكومة تعزى نفسها بأنها ستجني من الإباحة ضرائب تقدر بنحو خمسمائة مليون دولار. (أي نحو مائة مليون جنيه).

على كل حال لا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الأسف الشديد على فشل هذه التجربة الشريفة التي لم تكن ترمي إلا إلى أشرف المقاصد وأسمها وهو إغلاء شأن الإنسان وإسعاده.

٢٠٤٠

تصحيح

جاء في قصيدة (شيدا الطيران) المنشورة في العدد الماضي قوله: (واشهدوا الانس تهوى للقرار والصواب للفرار) وقوله: (فدية لوصح في الموت للقرار) والصواب: الفداء

سرى هذا المذهب الى الاسلام في القرن الثالث ، ومشت به الفلسفة ممثلة في اساطير الفكر ، وكبار الصوفيين ، واذ كانت الفكرة جديدة ، وكل جديد = في الغالب الاعم — منظور إليه بنظرات الخوف والحذر — اذ كانت الفكرة كذلك لدى أصحابها الشيء الكثير من الايذاء فقتل البعض ، ومثل به ، وربما حرق جثث البعض وهرب البعض إما من وجوه اولئك المتفهمين ، وإما من النظرية ذاتها ، وعدم البعض الى الرمز في الكتابة يعبر به عما يريد في عبارة مشكلة مطاطة تلين مع التأويل والتخريج ، فخرجت في تأليفهم كثير من المعميات . يقول بعضهم : جلست عن ابن سبعين من وجه النهار الى آخره ، فجعل يتكلم بكلام تعقل مفرداته ، ولا تعقل مركباته . . . وغلبت هذه الدندنة في كتبهم الكبيرة ، فأنت اذا قرأت الفتوحات لابن عربي أو النصوص مشيت في سهل وحزن ، ومرت بك ما من ومجاهل ، ومثل هذين فيما قلنا كثير من كتب رجالات التصوف القدامى

وتبدو هذه الظاهرة قوية في اشعارهم ، لأن التريبي على البسط والأبضاح الذي لا يقبله كله الشعر ، ولهذا عمدوا الى النظم فالتقوا فيه بأرائهم ملفوفة رمزية لتقبل التأويل كلما حزبهم من المتفتحة حازب

لم نستطع ان تعرف بالضبط متى نشأت وحدة الوجود ، إطلاقاً ، ولا أين ، أما الكيفية فنطلق الصوفيين فيها أبلغ . وقدما كان لوحدة الوجود أثر كبير في الأدب القديم — غالباً — فست خرافات الهند القديمة اطرافها مساً رقيقاً وشديداً على اختلاف الاساطير بعدا عنها وقرباً منها ، وذهب بعض اليونانيين القدماء الى ان أصل العالم يجب ان يكون مادة لا وصف لها ، ولا تقبل الفناء ، وأشرنا الى قولهم ان غير المتأني يستغرق كل موجود وتلك هي بعينها فكرة ابن سبعين ومنطقه القائل : ان واجب الوجود كلي وممكنه جزئي ، ولا وجود للجزئي الا في كلي ، كما لا يتحقق وجود الكلي الا بجزئياته

ولابن عربي في الباب تسع وعشرين ومائة في ترك المراقبة لاتراقب فليس في الكون الا واحد العين ، فهو عين الوجود ويسمى في حالة بآله ويكنى في حالة بالبعيد وشعر الصوفية طافح بالوحدة الوجودية منعكس فيها في تليج

أو تصريح ، وما زال القوم يرددون قول الغزالي — أو ما قيل انه قاله — ليس في الامكان أبدع مما كان ، وقالوا — بعيداً عن التأويل — نعم . لأن المخلوق صورة الخالق وليس أكل منه تعالى ووقف لهم جماعة بالمرصاد توفروا على تنفيد اقوالهم ، ومناقشة آرائهم ، ثم التشير بهم ، والنيل منهم ، وهذا ابن تيمية يعلن عليهم في الفتاوى حرباً شعواء ، وقدما قال ، ما أظن الله يغفل عن المأمون لآباحتها الفلسفة . . .

عرج قوم بالفلسفة في أيام العباسيين على الدين وحاولوا أن يوفقوا بينهما ، فرجعوا يحملون عبء الهزيمة ثقيلًا ، ومشت وراءهم الحكمة القائلة (سلم وانت أعمى) تلوح لهم ظافرة بهم ، ظاهرة عليهم وجاء صاحب جلاء العين فكان كابن تيمية فيما أراد وقال ، ثم جاء صالح المقليل في كتابه العلم الشامخ فسخر بهم ، وفسق كلامهم ، وعراه عن الحقيقة ، وامتدت كلماته اليهم فاصابت منهم مقاتل أعيان المتصوفون أمرهم فقام الجليلي يقول : صح لنا هذا كشفاً

فن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر ، وبهذه اندعوة الجليلي هذه كاذبة ، وألفا هذا المنطق يقدمونه بين يدي كل قضية ؟ وما هذه المقدمات التي تسكن عليها النتائج ؟ على أنهم لم يعمدوا نصراء يدافعون عنهم ويدفعون ، وهذا القزويني يعقد في كتابه درر الفرائد ، باباً في ذكر مصطلحات القوم . قال : أطمعون في فهم كلامهم وهو انما يعرف بالذوق لا بالمنطق ؟ من ذاق طعم شراب القوم يعرفه . . . ثم أخذ يفسر رموزهم ، ويستدل عليها فناقض نفسه .

ويقول غلاة المنتصرين : إذا ظهر كلام الصوفية خارجاً عن ظاهر الشريعة فهو مقول في حال سكرهم ، والسكران سكرًا مباحاً غير مؤاخذ ؛ فان لم يكن كذلك فلا بد أن يكون له تأويل ظاهر ، فان لم يكن فله تأويل باطن لا يعلمه إلا الله والراسخون .

فأنت ترى أنهم يريدون أن يبرئهم — إذا كان هناك جرماً — على أي حال ، ومهما كانوا ، ولنا عليهم أن نقول لو كان كلام الصوفيين مواجهاً للشريعة الظاهرة فقيم الرمز وفيه الإيهام ؟ وبعد ، فهذا مذهب وحدة الوجود في أظهر مناجيه ، ولعل مستطيع أن أعود اليه فيما بعد ؟

طاهر محمد أبو فاشا